

المنهج الانثروبولوجي ودراسة الممارسات الدينية

جفال نور الدين⁽¹⁾

تثير الاهتمامات المتنوعة للباحثين الانثروبولوجيين وتباين المجتمعات في ممارساتها الاجتماعية عموما والدينية خصوصا التي يجري فيها البحوث الميدانية تحديد طريقة إجراء البحث الميداني وان أول نقطة في إجراء البحث الميداني هي دخول الباحث الانثروبولوجي إلى ميدان البحث ولكن قبل أن يقدم الباحث على هذه الخطوة الأولى عليه أن يتعرف على التراث النظري حول موضوع البحث وتحديد الجهات التي تعتمد عليها في تنفيذ مشروع الدراسة لأن العمل الانثروبولوجي الميداني يحتاج إلى مصادر التمويل وخاصة عندما يجري البحث في مجتمعات أجنبية عن الباحث وعادة ما تقوم بعض المؤسسات التي تهتم بالبحوث الميدانية بتمويلها، وتخصص المؤسسات البحثية أشخاصا لهم خبرة ودراية بأهمية البحوث وتقدير مدى الاستفادة منها وتوظيف نتائجها في المجالات التطبيقية، ويتحدد تخطيط إشكالية البحث بعد أن يقوم الباحث بمعرفة التراث النظري حول الموضوع الذي يقوم بدراسته ثم يتعرف على جغرافية ميدان البحث وطبيعة تكوينه وخصائص السكان الذين يعيشون في مجتمع البحث ومرجعياته الدينية، وبعد ذلك يحدد المناهج المختلفة التي يمكن توظيفها في إجراء الدراسة الميدانية ولأهمية العلاقة بين المناهج المستخدمة والتكتيكات الخاصة التي تستخدم في جميع المادة الانثوجرافية يقتضي من الباحث أن يختار من هذه الأساليب ما يتناسب مع موضوع البحث وطبيعة وخصائص مجتمع البحث، ويحرص الباحث الأنثروبولوجي قبل دخوله ميدان البحث إن يتعلم لغة مجتمع البحث أو اللهجة التي يتحدث بها سكان المجتمع فمثلا بعض القبائل العربية تتحدث بلهجات قد يصعب على الباحث العربي أن يفهمها بسهولة مثل لهجات قبائل الشحوح في المجتمع الإمارات العربية المتحدة أو بعض القبائل في شمال إفريقيا وخاصة المغرب العربي أو في مجتمع النوبة في أقصى صعيد مصر وغالب لا يستطيع الباحث أن يتعرف على هذه اللهجات وهو خارج مجتمع البحث لعدم تسجيل اللغات أو اللهجات وهو خارج مجتمع البحث وعموما يعتبر تعلم لغة مجتمع البحث ضرورة لأنها تساعد الباحث على فهم جوانب كثيرة من ثقافة المجتمع عموما ومعتقداته وممارساته الدينية خصوصا بالإضافة إلى تكوين علاقات شخصية مع أعضاء المجتمع.⁽²⁾

. تقنيات وأدوات جمع المادة العلمية في المنهج الانثروبولوجي:

تعتبر عملية جمع المادة العلمية و المعطيات من أهم مراحل البحث العلمي، حيث أن المعطيات هي المادة الخام التي سيستخلص منها الباحث بعد المعالجة: التفرغ والتبويب، التحليل والتفسير والنتائج النهائية للبحث، ولهذا يحرص العلماء والباحثون على ضرورة أن تتم هذه العملية بكل دقة وموضوعية وصدق وأمانة وهذا الأمر بدوره يتطلب من الباحث حسن اختيار التقنيات وأدوات جمع المادة العلمية والمعطيات التي تحقق ذلك الغرض وخاصة في مثل الدراسات التي ترتبط بالمرجعية الدينية للمجتمع وممارساته وسلوكياته لطبيعتها المعقدة والمتشابكة، وعلى الباحث أن يحسن اختيار التقنية والأداة التي سيستخدمها لجمع المادة العلمية والمعطيات من الحقل الميداني، وبالتالي عليه أن ينظر إلى مجال استخدام هذه التقنية أو الأداة وإلى محددات استخدامها ومدى توافقها مع الموضوع والمنهج المتبع.⁽³⁾

أولا: الإخباريون (الإبلاغيون) informants⁽⁴⁾

وهم يعتبرون المصدر الرئيسي للحصول على المادة الانثوجرافية ويجب تكوين معهم صداقة وعلى أساسهم يمكن إقناع الباقين والتعاون معهم، وتسمى هذه الفئة المختارة من أفراد المجتمع بالإخباريين أو الإبلاغيين، ولقد بين علماء الانثروبولوجيين والانثوجرافيين أهم الصفات والشروط التي يجب أن يكون عليها الإخباري وأساس اختياره لأنه يعتبر من أهم المصادر يعتمد عليها الباحث ولذلك يتعين عليه منذ دخوله إلى الحقل الميداني تكوين لعلاقات شخصية مع بعض أعضاء مجتمع البحث أو أشخاص قد تكون لهم علاقة سابقة بمجتمع البحث من اجل الحصول على معلومات ومعطيات مضبوطة ودقيقة وموثوق بها التي يتوقف عليها البحث، وعلى الرغم من ضرورة الثقة في الإبلاغي، لأن الباحث لا يمكن أن يحكم على مدى صدق المعلومات التي تعطى لها لإمكانية إعطاء الإخباري معلومات خاطئة متعمد في ذلك أو غير متعمد ويرجع ذلك إلى الحصار القوي المفروض على أي شخص غريب يدخل المجتمع أو الضغائن المثيرة بين الأشخاص الذين يحصل منهم على المعلومات والباحث أو تقصير الباحث نفسه في عدم تقديم المكافآت المادية للإخباري.

فالإبلاغي في حقيقة الأمر نشأ في وسط بيئة مجتمع البحث يعرف قواعد وعادات وأعراف والمعايير الدينية والممارسات السلوكية للمجتمع، ويعتبر كترسانة واحتياط المعرفة وثقافة المجتمع الذي نشأ فيه ولذلك على الباحث أن يطرح عدة أسئلة ليس على فرد واحد من الإخباريين بل على عدة أفراد لتأكد من مدى صحة المعلومات من إخباري إلى آخر وتفادي الإخباريين الذين لهم نظرة تحليلية والذين يفرضون أفكارهم وأنفسهم على ثقافة كل المجتمع وبالتالي يشوهون ويحرفون كثير من المعلومات الصحيحة.

ثانيا :الملاحظة وأنوعها في الدراسات الأنثروبولوجية

الملاحظة بالمشاركة أو المعايشة observation participant⁽⁵⁾

إن الدارسة الميدانية field study تشكل لب المنهج الأنثروبولوجي وهي تتضمن المشاركة في أنشطة المجتمع المدروس وملاحظة أنماط السلوك وكيفية تنظيم الحياة الاجتماعي لذلك تعتبر الملاحظة بمشاركة من أهم التقنيات والأدوات الانثروبولوجية-ethno (methodological) وهي طريق منهجية في البحث الأنثروبولوجي وترتبط بمالينوفسكي(استخدم هذه الطريقة في دارسته لسكان جزر التروبرياندا في ميلانيزيا بين عام 1914 وعام 1918) وأصبحت عنصر أساسي في الدارسة الميدانية وهي التي تسمح للباحث الأنثروبولوجي _ وتتطلب منه _ احتلال مركز أو وضع على مستوى المجموعة المدروسة والمشاركة في حياتها اليومية أو أوقاتها الخاصة الاستثنائية (الأعياد، الحفلات...الخ)، وعليه فان الملاحظة بالمشاركة تتطلب من الباحث معايشة مجتمع الدراسة، فهي التي يكون فيها الباحث جزء من الجماعة التي ينوي دارستها وذلك من خلال المشاركة الكاملة في حياتها وفعاليتها اليومية لمعرفة الشمول الثقافي(*) للمجتمع وعمومياته الثقافية.

وهذا يتطلب طبعاً اكتساب عادات وتقاليد وأنماط وسلوكيات مختلفة حتى تنشأ بين الباحثين علاقات اجتماعية وثقة متبادلة تسمح له بالحصول على معلومات متناظرة .

فهذه التقنية تساعد على الإلمام بحجم كبير من المعطيات في الميدان من سلوك ظاهري لدى الأفراد الباحثين وعند إجراء الملاحظة بالمشاركة على الباحث أن يكون مدركاً للأمور التي تجري حوله والألفاظ والكلمات التي يسمعها ورغم اندماجه في المجتمع ومشاركته لأعضاء المجتمع وتفاعله معهم لأن المجتمع لا يرغب أن يكون مثلهم.

يعني ذلك أن دور الأنثروبولوجي أثناء قيامه بالملاحظة يجب أن يكون ثانوي وأن لا ينس أن الغرض من الملاحظة هو معرفة معطيات المجتمع من داخله دون أن تنفيه المشاركة أو المعايشة في الحياة اليومية عن هدف البحث، ورغم اندماج الباحث في المجتمع يبقى يجهل بعض جوانب الثقافة السائدة مما يجعله يحذر كل الحذر من الاصطدام مع فرد من أفراد المجتمع .

فيجب على الباحث التعلم كيفية التعامل مع أعضاء المجتمع بطريق صحيحة فيتجنب انشأ علاقات حميمة تنهيه عن هدف البحث ويسعى الباحث اكتساب تقدير المجتمع احترامه فالباحث يسعى بأقصى جهده لإلمام بالمعطيات ومعلومات عن ثقافة المجتمع وتحدد الإشارة هنا أن الملاحظة بالمشاركة و فائدتها تبقى رهن الفترة التي يقضيها الباحث في الميدان فكلما كانت الفترة أطول كانت المعلومات اشمل وأكثر وأدق عن ثقافة المجتمع والعكس صحيح.

فالملاحظة بالمشاركة تحوى في الحقيقة ملاحظة مباشرة وملاحظة غير مباشرة فأما الأولى فقد أشار إليها مونتاجيو بقوله (في حالة دارسة المجتمع البدائي، فان الدارسة لا يمكن أن تتم إلا بملاحظة المباشرة) لذلك يجب على الباحث الأنثروبولوجي الاحتفاظ بمذكراته وأدواته الأخرى بعيد عن الأنظار ويعمل على تقليل الاختلافات في المظهر بينه وبين الباحثين ويحرص دائماً على كسب الثقة أكثر ويكون اهتمامه هو عدم الخروج عنهم بتصرفاته التي لا ترضيهم وان لا يتسبب في اضطراب حياتهم وفي أثناء ذلك يكرس وقته لتعلم اللغة الباحثين كلما كانت الفرصة مواتية وأحسن طريقة لاستنتاج المعلومات والمعطيات هي توجه اقل قدر من الأسئلة الغير مباشرة قصد تشجيع الأفراد على التكلم بحرية التامة للكشف عن التصورات والأفكار والمعتقدات التي تختفي وراء السلوكيات لمجتمع البحث والتي لا يمكن رؤيتها مباشرة و يلعب الإخباريون دور هاماً في الملاحظة الغير مباشرة حيث يقدموا عون كبير للباحث، لكن ليس كل الإخباري يكون له نفس اهتمام بموضوع البحث الذي يقوم به الباحث فالنساء يعرفن أكثر عن بعض الموضوعات عن بعض الرجال والعكس صحيح، وكبار السن لهم دراية

أكبر بالأساطير والخرافات والتاريخ والمشايخ وغيرهم من رجال الدين لديهم خبرات ومعلومات غير متوفرة لدى الآخرين في مجال المعتقدات والأديان.

ثالثا: المقابلة في الدراسات الأنثروبولوجية⁽⁶⁾ لقد تباينت مفاهيم المقابلة باختلاف إيجابيتها وسلبيتها وأنواعها فلقد عرفها العديد من العلماء منهم: "بنجهام bingham" المقابلة بأنها المحادثة الجادة الموجهة نحو هدف محدد غير مجرد الرغبة في المحادثة لذاتها، "وأما بولين يونج" المقابلة بأنها طريقة منظمة يتمكن من خلال الفرد يسر حياة فرد آخر غير معروف له نسبيا، ويرى "بياتريس ويب" المقابلة بالنسبة للباحث الاجتماعي في الاستقصاء والبحث تعادل أنبوية الاختبار التي يستخدمها الكيميائي في معمله والميكروسكوب الذي يتخذه البكتريولوجي في اكتشافاته.

وغيرها من التعاريف والمفاهيم المختلفة، وخلاصة القول أن المقابلة هي:

موقف للتفاعل الاجتماعي اللفظي تهدف إلى استئثار معلومات محددة تعلمه بمهدف هذه المقابلة الذي قد يتمثل في البحث العلمي أو التشخيص أو العلاج أو التحقيق، ويستخدم فيها الجانب التبادل اللفظي الإيماءات، السلوك، الشكل العام تعبيرات الوجه والعين، وهي تتكون من ثلاثة عناصر "الباحث" و"المبحوث" و"الموقف الخاص بالمقابلة" والتي تستخدم كمصدر للحصول على بيانات من الأفراد المبحوثين التي يمكن من خلالها معرفة المعتقد الذي وراء السلوك وكل جوانبه التي يصعب لنا معرفتها من خلال التقنية الأولى (الملاحظة بالمعايشة) وخاصة في الدراسات ذات طابع ديني.

وتساهم المقابلة في فهم معاني ووظائف الأشكال الثقافية المحلية والسمات الثقافية* للمجتمع وتتم المقابلات من خلال خطة لتحديد أنماط السلوك اليومي أو التي تحدث على مدى فترات زمنية معينة، وفيها يستفسر الباحث عن أنماط السلوك الثقافي الذي يلاحظه.

رابعا: قصة حياة⁽⁷⁾ لقد عرف البعض على أن قصة الحياة منهج من مناهج جمع البيانات ونعني بقصة الحياة القصة الشفهية المتعلقة

بسيرة الذاتية للمبحوث أو قصة حياته المكتوبة بقلمه وهنا لابد من الإشارة إلى أن مدخل قصة الحياة يستهدف عموما الحصول على وصف دقيق وصحيح لمسارات حياة المبحوثين في السياق الاجتماعي وذلك لكشف عن أنماط العلاقات الاجتماعية والعمليات التي تشكل هذه العلاقات ويستمر العمل بهذه الطريقة حتى يتم الوصول إلى نقطة التشبع وهي النقطة التي يتم عندها الحصول على القدر الكافي من المعلومات فالأنثروبولوجي يطلب من بعض المبحوثين أن يخلصوا ماضيهم من خلال هذه السيرة نعرف أخبار لعالم غامض لو توضحوه الاثنوجرافية أو علم خصائص الشعوب توضيحا كافيا وهذا ما يعطي مزيد من القيمة لهذه النصوص باعتبارها وثائق، ولقد كان سجل الدراسات الأنثروبولوجية حافل بمنهج قصص الحياة لان خلف كل قصة أو سيرة ذاتية نقرأها عن جماعة معينة أو مجتمع معين يوجد باحث انثروبولوجي قد قام بجمع الحقائق وعائنها حتى وصلت إلينا.

خامسا: تاريخ الحياة⁽⁸⁾ تفيد عادة مادة تاريخ الحياة في محاولة رابط تجريدات الوصف الاثنوجرافي بحياة الأفراد في المجتمع ونظر لما تتحه مادة تاريخ الحياة من الحصول على معطيات ثرية تتناول ما يتخذه المبحوث من قرارات هامة وتكشف عن مشاعره إزاء الأشخاص والأحداث وتبرز التبريرات الذاتية لجوانب الأفعال وقد درس "لون غنس" تاريخ الحياة في البحوث الأنثروبولوجية وهو تنميط معتقدات الناس وتصور الأحداث الماضية وليس مجرد البحث عن صدق أو كذب تلك التقارير، فان مادة تاريخ الحياة تكون أكثر فائدة لفحص أنماط القيم العامة، وتصور العلاقات الاجتماعية والطبيعية أكثر مما تكون تاريخا حقيقيا، فهي تعكس تصورات الناس ومعتقداتهم، واتجاهاتهم و التعرف على تلك الجوانب يعتبر هدف عام في ذاته، وهناك دراسات أنثروبولوجية تدخل في هذا النطاق منها دراسة "دورا دويوا" الذي جمع تاريخ حياة لثمان شخصيات.

سادسا: المعاينة في المنهج الأنثروبولوجي⁽⁹⁾ يستخدم المسح لجمع المعطيات والمعلومات محددة من الحقل الميداني من طرف عدد كبير من الأفراد أو عدد كبير من الأسر، وتتم المسوح عادة أثناء إجراء الدراسة الحقلية، لأن البيانات المطلوبة يكون جمعها أسهل خلال هذه الفترة، ومن الموضوعات التي تتم استخدام المسح عادة في جمع البيانات عنها إحصاء السكان وتحديد فئات العمر، والجنس في المجتمع وتحديد عدد الأسر... الخ وقد يشمل المسح جميع أفراد المجتمع، في حين يطبق المسح على العينة واحدة في بعض الأحيان ويجب أن يلتزم الباحث الأنثروبولوجي بالخطوط العريضة التي يقررها علم الإحصاء عند اختيار العينة

مشاكل المعاينة في الدراسات الأنثروبولوجية

تحديد وحدة البحث : أن وحدة التحليل في البحث الأنثروبولوجي هي "المجتمع المحلي" وكثيرا ما يجد الباحث صعوبة في تحديد هذا المجتمع، فبين شعوب شرق إفريقيا على سبيل المثال نجد أن المساكن عبارة عن تجمعات منتشرة ممتدة بشكل يجعل من الصعب تحديد المجتمع المحلي المراد دراسته وخاصة انه كثير ما تتداخل الجماعات البشرية، وكذلك عند إجراء البحوث الأنثروبولوجية في المدن قد يصعب تحديد حدود الجماعات الفرعية مثل الجيوب العرقية . وإزاء هذه الصعوبة أي تحديد المجتمع المحلي فانه كثيرا ما يلجأ الباحث الأنثروبولوجي إلى تحديد المجتمع المحلي أو تحديد مجال العينة بالنظر إلى الملامح الإيكولوجية الطبيعية مثل الأنهار، والأودية، والمناطق الساحلية، كما يضع الباحث معايير أخرى لتحديد المجتمع المحلي أو الجماعة التي يقوم بدراستها مثل كالمرجعية الدينية التي يعتمد عليها أفراد الجماعة في ممارسة عقائدهم وسلوكياتهم الدينية، وهكذا يحاول الباحث الأنثروبولوجي التغلب على صعوبات تحديد المجتمع المحلي أو الجماعات باتخاذ معايير مختلفة تساعدهم في إضفاء الصفة والموضوعية في دراستهم.

حجم العينة ونوعها : يجب على الباحث عند اختيار العينة اتخاذ الاحتياطات التي تكفل تمثيل العينة لمجتمع البحث وهنا فان عليه أن يتخذ من الاحتياطات ما يكفل عدم التحيز في اختيار مفردات العينة كما أن عليه مراعاة أن تكون حجم العينة ممثلا للمجتمع تمثيلا يتفق مع المعايير الإحصائية المتعارف عليها مثل العينة الطبقية⁽¹⁰⁾ Stratified Samples أو العينة النظرية الغالبة في الدراسات للعقائد والممارسات الدينية.

. استخدام المنهج الأنثروبولوجي في دراسة الممارسات الدينية في الإطار الميداني والنقلي:

من يتتبع تطور مناهج البحث العلمي عبر العصور لن يجد صعوبة في الوقوف على نقاط ضعفها وأوجه العجز فيها، ذلك أنها جميعها مناهج مؤقتة ومحدودة بمحدود النظرة الفلسفية الضيقة لأصحابها ومنظريها ولهذا جاء القياس الصوري عقيما، والبناء الاستنباطي متداعيا والنسق البيكوني هزليا كل بسبب التقدم المستمر للعلم واستحدث علوم جديدة ومتولدة لا يجدى معها أي من قوائم المناهج التقليدية المطروحة أما المنهج العلمي الإسلامي بثوابته ومتغيراته فيترك المجال مفتوحا لأي علم جديد يحدد الباحثون فيه منهجهم من واقع ممارستهم الفعلية لعملية البحث العلمي بدقائقها وتفصيلها ويرجع ذلك إلى اتساع دائرة المعارف في الإسلام "المعرفة كل معلوم دل عليه الوحي والحس والتجربة"، فكل معلوم دل عليه الوحي ليكون علما، لأن الوحي جاء بطريق علمي ألا وهو الإعجاز والتحدي فالقرآن الكريم تحدى الناس أن يأتوا بمثله أو بعشر سور، أو بسورة وعجزوا وبالتالي فالمعرفة عند المسلمين، كل معلوم دل عليه الوحي والحس والتجربة، والعقل يدخل في الحس كذلك.⁽¹¹⁾

عند الغرب والمعتزف به لدى "اليونسكو" وسائر المؤسسات الثقافية "المعرفة كل معلوم خضع للحس والتجربة"، فكل ما يتعلق بالله وبالأخرة وبالأنبيا كل هذا يعتبر ليس من العلم، ولذلك حين يتحدثون عن هذه الأمور يلحقونها بالخرافة، وبالأساطير، وبكل شيء لكن لا يعتبرونها معلومة لأن مصادر المعرفة عندهم الوجود وحده.⁽¹²⁾

وبذلك فقد جمع الفكر الإسلامي منذ ظهوره بين النظري وبين الممارسة العملية والعلمية، ومن هنا يكمن من خلال كل ما سبق إمكانية إجراء دراسات أنثروبولوجية كيفية ممارسة والمعتقدات الدينية في المجتمعات، لان المنهج الأنثروبولوجي يتسع لكل المجالات وهو خصص، ولقد استعمل المنهج الأنثروبولوجي في دراسة معتقدات وسلوكيات للمجموعة من الناس وضع إشكاليات البحث التي كانت ترمي إلى ما مدى مطابقة السلوكيات الدينية مع المعتقدات النقلي لتلك الجماعة واستخدمت عدة أدوات وطرق في هذه الدراسات، وتعتبر الدراسات الميدانية "الحقلية" الصفة المميزة للأبحاث الأنثروبولوجية كما تعتبر الوسيلة الأساسية التي تمكن العلماء في هذا الميدان من جمع أكبر قدر ممكن من المعلومات ووصف الحياة الدينية والثقافية والاجتماعية وصفا تفصيليا دقيقا يستطيع الباحث بعده أن يكتب تقريرا متكاملا ومفصلا عن هذا المجتمع أو تلك الثقافة التي يدرسها.⁽¹³⁾

نماذج لدراسات الممارسات والمعتقدات الدينية:

تعددت الدراسات الأنثروبولوجية في اللغات الأجنبية والمتعلقة بقضايا الدين وممارسات طقوسه في رأيهم، إلا أنها لا تعدو إلا مجرد عنصرا في دراسة شاملة لثقافة قبيلة أو مجتمع من المجتمعات سميت بالبداية بطبيعة دراسة تقليدية . إشارة إلى الأنثروبولوجيا التقليدية وترتكز

أغلبها إن لم نقل كلها على فكرة الطوطم . الوثن . وأصل الدين والخرافة والطقوس الممارسة حولها، أو بعبارة أخرى دراسة الديانات المبتكرة من الأفكار البشرية وبطريقة استكشافية، بعد إضفاء أسماء ومصطلحات جديدة على أشياء بغير مسمياتها الحقيقية في الواقع ثم دراستها، والدراسات المثيلة لها في اللغة العربية ما تزال قليلة، ويرجع ذلك إلى صعوبة ونوعية الموضوع في ضل المتغيرات القرن ونفور النخب والباحثين من الدراسة هذا الحقل (الجانب التطبيقي) لعدة أسباب يصعب توضيحها في هذا المقام، فالتراث النظري السبسيولوجي والأنثروبولوجي المتعلق بالدين وممارساته مازال حتى الساعة يستند في غالبه على الأبحاث المعدة باللغات الأجنبية أو المترجمة لها، ولم تكن بالكيفية تفصيلية، معتقد وسلوك، (مقارنة: نقلي وميداني) للسلوكيات الدينية في الإسلام، واستثناء من ذلك الأبحاث الشرعية التي خاضت في الدين وممارساته والمعتقدات وأثرها على السلوك وهي كثيرة ونذكر مايلي:

الدراسات والأبحاث الأكاديمية العربية: تأتي كل من الأبحاث، (نعيم يوسف، **اثر العقيدة في حياة الفرد والمجتمع**، 2001 م) التي تحتوي ماهية العقيدة وخصائصها، وأثر العقيدة في حياة الفرد، وأثر العقيدة في حياة المجتمع، وأيضا (محمود حمدي زقزوق، **العقيدة الدينية وأهميتها في حياة الإنسان**، 1415هـ) التي تحتوي الطبيعة الإنسانية والنزعة الدينية، وأصالة النزعة الدينية، والإيمان ضرورة حياتية، وعقائد الإسلام الأساسية، وكذلك (السيد احمد فرج **الإنسان والتوحيد**، 1993م) التي تحتوي العناصر: ما الإنسان، خلق الإنسان في القرآن ومقصوده، ميل الإنسان الفطري إلى الدين، حتى الإنسان الوثني بفطرته يتطلع إلى التوحيد، العبودية لله عبادة وعلم وعمل، وكذا (نبيل توفيق السمالوطي، **الدين والبناء الاجتماعي**) ويحوي: فطرية النزعة الدينية عند الإنسان، حول النظريات المطروحة بصدد تفسير نشأة العقيدة الإلهية، وأيضا (أسامة مشعل، **التناقض بين العبادة والسلوك**، 2004) ويحوي: أهمية موضوع التناقض بين العبادة والسلوك، مظاهر التناقض بين الجانب العبادة والجانب السلوكي، أسباب التناقض بن الجانبين وعلاج هذا التناقض، وكذلك (محمد ابن عبد الوهاب، **كتاب التوحيد الذي هو حق لله على العبيد**) ويحوي: تفسير التوحيد وما نتج عنه من سلوكيات عملية والحفاظ عليه، ونقيضه وما ترتب عنه من ممارسات والوقاية المجتمع والفرد منه.

فهذه البحوث أكاديمية والنظرية في حقيقة الأمر، غير أنها بعيدة عن الإمبريقية (الميدانية الحقلية التطبيقية)، وبعضها يغلب الجانب العقدي على السلوكي أو العكس، وأخرى لا توضح الرابط بين الجانبين بصورة واضحة وتطبيقية. غير أن هناك ثلاث دراسات ذات طبيعة امبريقية الأولى متمثلة في دراسة (ابن بطوطة في كتابه **تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار** 1225 م حتى 1254م) للحياة بكل جوانبها وأشار إلى جانب الاعتقادات والممارسات الدينية بدراسة مسحية للكثير من المجتمعات، والثانية متمثلة في دراسة (ابن فضلان الذي درس المعتقدات الدينية وما ينجر عليها من ممارسات وسلوكيات الدينية للسكان في ضفاف نهر الفولكا وكيفية إحراقهم للموتى عام 922 م)⁽¹⁴⁾ والثالثة متمثلة في دراسة (الإمام عبد الوهاب الشعراني في مخطوطة، **الكوكب الشاهق***)، القرن العاشر الهجري) حيث قام بدراسة مسحية على الطوائف الصوفية في المجتمع القاهرة، ولقد اختار عينات specimens عشوائية ممثلة للطرق الموجودة في المجتمع القاهرة عبارة عن مائة مريد من المنخرطين في الطرق الصوفية واستهدف في دارسته إثبات صحة الفرض الذي وضعه، وهو أن هناك في عصره اندحار في الأخلاق للصوفية عن أخلاق الصوفية في العصور السابقة عليه، ولقد استعان الشعراني بالملاحظة المباشرة وغير المباشرة، ووصف أخلاقيات المريدين في عصره وصفا دقيقا، يدل على انخراطه في الطريق الصوفي، وفهم دقيق للممارسات practices والأذواق والمشارب و الموحد الصوفية . تجدر الإشارة هنا اعتبار الباحث جزء من الجماعة المدروسة وهذه الطريقة معتمدة في الدراسات الحقلية العلمية بما يسمى الآن الملاحظة بالمعيشة، ثم عقد مقارنة بين صوفية عصره وبين الصوفية من السلف الصالح، وظهر في نتائج بحثه بأدلة دامغة وبراهين قاطعة اندحار وانتكاس الأخلاق في عصره عن العصور السابقة عليه، مما يثبت إن الغرض الذي وضعه في دارسته كان صحيحا وإن الدارسة الحقلية والمسحية والعلمية أثبتت صدقه.⁽¹⁵⁾

. الدراسات والأبحاث الأكاديمية الأجنبية: لقد أشارت كل من أبحاث ودراسات راد كليف براون الذي تأثر بعالم الاجتماع إميل دوركايم، وكلود ليفي ستروس و لاينيز (حديث عن الماورائيات 1686)، مالبرانش (حوارات في الغيبات والدين 1688م)، ادوارد تايلور ومارجريت ميد وايفانز بريتشار وغيرهم كثير إلى الدين و البنى الاجتماعية في بعض المجتمعات في إطار تحقيق نظريات (البنائية الوظيفية . الانتشارية)، ورغم أنها ذات طبيعة امبريقية، إلا أنها لا تعدو إلا إشارات في سياق الدراسات الأنثروبولوجية anthropology study الاجتماعية نحو فهم

الأحداث الاجتماعية والثقافية والذي يشتمل على المعرفة، العقائد والممارسات الاجتماعية والدينية، والفن والأخلاق، والعادات وغيرها، إلقاء الضوء على الأنساق المكونة للبناء الاجتماعي منها النسق الديني التي تقوم على النظم الاجتماعية، وتهدف هذه الدراسات سواء كانت الأنثروبولوجيا البنائية، أو الثقافية دراسة المجتمعات المحدودة والبسيطة خوفاً من إنذارها، وذلك بقصد الوصول إلى النظرية تفسر الحياة في تلك المجتمعات، لذلك أنهم يهتمون بالعلاقات الظاهرية التي تتفاعل بعضها مع بعض وذلك لفهم أبنية المجتمع ووظائفه، لا يركزون بصورة دقيقة لدراسة المعتقدات والممارسات الدينية Religious practices فجاءت دراستهم شاملة لكل البنى الاجتماعية إجمالاً.⁽¹⁶⁾

خاتمة

على ضوء ما طرح سابقاً يلاحظ مدى الفعالية تطبيق التقنيات البحثية في الدراسات الحقلية الأنثروبولوجية وبالأخص دراسة الاعتقادات والممارسات الدينية يتوقف على مستوى الخبرة للباحث ذاته ومدى علمه بالمنهج الأنثروبولوجي التقليدي. إشارة إلى الأنثروبولوجيا التقليدية Classical anthropology التي تهتم بدراسة المجتمعات البدائية، فأصبحت الآن غير مرغوب فيها لعدة سلبات واجتباها الموضوعية في الدراسة أو الأنثروبولوجيا الحديثة New anthropology التي تدرس الإنسان ككائن فيزيقي وما يصدر عنه من سلوكيات سواء كانت اجتماعية أو ثقافية، دينية، سياسية... إلخ وخاصة في المجتمعات الحديثة رغم توفر عدد لا بأس به من الوسائل الإمريكية للبحث ويبقى زمن الدراسة هو الفيصل في مدى ناجعة ودقة نتائج البحث سوى كانت حقلية أو نظرية هذا ما اتفق عليه علماء والباحثين في الاختصاص تقريبا .

الهوامش:

1. أستاذ أنثروبولوجيا / Anthropologie جامعة تبسة
2. محمد حسن غامري: الثقافة والمجتمع الأنثروبولوجيا الثقافية والبحث الميداني. ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ص 51 - 52، انظر كذلك عبد الله عبد الغني غانم: قراءات وتطبيقات في طرق البحث الأنثروبولوجي. ط (1)، المكتب الجامعي الحديث، مصر، 2004، ص 76-82 (بتصرف).
3. مراد زعيمي: مقال بعنوان أدوات البحث الاجتماعي محدادتها ومجالات استخدامها، مجلة العلوم الإنسانية، قسنطينة، عدد 19، جوان 2003، ص 152، انظر كذلك محمد حسن غامري: الثقافة والمجتمع. ص 5755 (بتصرف)
4. يحي مرسى عياد بدر: أصول علوم الإنسان الأنثروبولوجيا. ج 1، ط 1، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، 2007، ص 408، انظر كذلك محمد حسن غامري: مرجع سابق، ص 6862 (بتصرف يسير)، انظر كذلك عاطف وصفي: الأنثروبولوجيا الثقافية مع دراسة ميدانية للجالية الإسلامية بمدينة دير بورن الأمريكية، دار النهضة العربية، لبنان، ص 289.
5. يحي مرسى عياد بدر: مرجع سابق، ص 387، 399، انظر كذلك نخبة من هيئة التدريس: طرق البحث وأدلة العمل الميداني في الدراسات الأنثروبولوجية. دار المعرفة الجامعية، مصر، 2005، ص 8683، محمد حسن غامري: مرجع سابق، ص 6057، عبد الله عبد الغني غانم: مرجع سابق، ص 102. 106. DURAND، J & WEILR: 1980، 224 نقلا عن مسعودة كونة وآخرون: أسس المنهجية في العلوم الاجتماعية. منشورات جامعة منتوري، قسنطينة، 1999، ص 189 (بتصرف)، انظر كذلك عاطف وصفي: مرجع سابق، ص 288. 274، وبيارونيت وآخرون: معجم الأنثولوجيا والأنثروبولوجيا. ترجمة مصباح الصمد، ط 1، المؤسسة الجامعية لدارسات والنشر والتوزيع مجد، لبنان، 2006، ص 853، وانظر أيضا محمد عباس إبراهيم وآخرون: والأنثروبولوجيا (علم الإنسان). دار المعرفة الجامعية، مصر، 2006، ص 60. 72، محمد الجوهري وآخرون: والأنثروبولوجيا الاجتماعية قضايا الموضوع والمنهج. دار المعرفة الجامعية، مصر، 2006، ص 267. 272، وإحسان محمد الحسن: موسوعة علم الاجتماع. ط 1 دار العربية للموسوعات، لبنان، 1999، ص 609. 612.
- الشمول الثقافي / cultural universalism أو العموميات الثقافية يقصد به اشتراك جميع أفراد المجتمع أو غالبية العظمى منهم في بعض العناصر وهذه العموميات الثقافية هي التي تعطي لثقافة مجتمع معين طبعها المميز، انظر احمد بن نعمان: سمات الشخصية الجزائرية من منظور الأنثروبولوجيا النفسية. المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، 1988. ص 74.
6. مسعودة كونة وآخرون: مرجع سابق، ص 111. 115، انظر كذلك نخبة من هيئة التدريس: مرجع سابق، ص 106. 114 عبد الله عبد الغني غانم: مرجع سابق، ص 125. 120، محمد عبده محجوب: الأنثروبولوجيا التطبيقية مقدمات نظرية وخبرات حقلية. دار المعرفة للطباعة والنشر، مصر، 2006، ص 373، يحي مرسى عياد بدر: مرجع سابق، ص 404. 408، مراد زعيمي: مرجع سابق، ص 153. 154، وانظر أيضا عاصف وصفي: مرجع سابق، ص 289. 290 ومحمد الجوهري وآخرون: مرجع سابق، ص 270. 271.
7. نخبة من أعضاء هيئة التدريس: مرجع سابق، ص 42. 51، عبد الله عبد الغني غانم: مرجع سابق، ص 128. 136 (بتصرف يسير).
8. نفس المرجعين السابقين على الترتيب، ص 40. 41، ص 126. 127. وانظر كذلك عاصف وصفي: مرجع سابق، ص 289. 290.
9. نفس المرجعين السابقين على الترتيب، ص 5351، ص 137. 139. وانظر أيضا إحسان محمد الحسن: مرجع سابق، ص 466. 470.
10. العينة الطبقة Stratified Samples / يستخدم الأنثروبولوجين العينة الطبقة في تلك المجتمعات التي تضم جماعات ثانوية مهمة مثل الطوائف والطبقات الاجتماعية والجماعات العرقية.
11. طه جابر العلواني، إصلاح الفكر الإسلامي. [دط]، دار الهدى، الجزائر، [دت]، ص 131.

12. نفس المرجع السابق. ص 129 ، 130.
13. مجموعة من المؤلفين، قضايا المنهجية في العلوم الإسلامية والاجتماعية: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة، ط1، 1996م، ص83.
14. ابن بطوطة محمد، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار. ط4، مؤسسة الرسالة، 1405هـ. واحد ابن فضالان، رسالة ابن فضالان في وصف الرحلة إلى بلاد الترك و الخزر والروس والصقالية. ط2، مديرية إحياء التراث العربي، دمشق 1979.
- **قام الدكتور حسن الشرقاوي بتحقيق مخطوط الكوكب الشاهق الإمام عبد الوهاب الشعراي ونشرته دار المعارف المصرية سنة 1982م في طبعته الأولى.
15. حسن الشرقاوي، المسلمون علماء وحكماء. ط1، مؤسسة مختار، القاهرة، 1987م، ص 141.139.
16. محمد صفوح الأخرس، الأنثروبولوجيا وتنمية المجتمعات المحلية. منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 2001م، ص 23، ص 99. 100. ومحمد عباس إبراهيم، الأنثروبولوجيا (علم الإنسان)، ط1، دار المعرفة الجامعية